قـــراءة في وصـــية أب لأبنـــه

أ.د. يونس أحمد السامرائي
كلية الآداب – جامعة بغداد

قلنا في كتابنا : (دراسات أدبية عباسية) في فصل : (وصايا الشـــعراء) : (من الفنون الأدبية الموروثة في أدبنا العربي الوصايا ، وهي تمثل جانباً مهمـــاً من جوانب التراث ، مكانة مرموقة بين الفنون الأدبية التي عني بها العربي منذ القدم. وجلبت أنتباه مدوني الأدب ، فأفسحوا لها في تصانيفهم مجالاً يكاد لا يقل عن مجالات الفنون الأدبية الأخرى ، لما أنطوت عليه في تسجيل دقيق لقيم أبناء الأمة وأفكارها ، واستقطاب مكثف لخلاصة تجاربها العميقة في مضامير الحيـــاة وميادينها المتشعبة من جهة الاشتمال بعض منها على الظرافة من جهة أخرى.

وقد يتضح الكثير من كتب التراث لا يعدم الوقوف على جملة مـــن هـــذه الوصايا مجتمعة تارة ، ومبثوثة في تضاعيفها تارة أخرى .

وعلى الرغم من أهمية هذا الفن في الأدب وصلته الوثيقة بالحياة ، وأثره في العلائق بين أبناء الأسر أو القبيلة أو الأمة ، فأننا لم نقف على تعريف أدبي للوصية ، وإنما هناك تعريف لغوي جاء في خضون المعجمات ، ففي اللسان :

(أوصى الرجل ووصّاه : عهد إليه ، وأوصيت له بشيء وأوصيت إليه : إذا جعلته وصيك ، وأوصيته ووصيّته أيضاً توصية : بمعنى . والوصـــيّة : مـــا أوصيت به ، وسُميت وصيّة : لاتصالها بأمر الميت) .

وفي المعجم الوسيط :

(وصّى فلاناً وإليه : جعله وصيّة ، يتصرف في أمره وماله وعياله بعـــد موته ، والوصيّة : ما يُوصى به) .

والوصيّة بمعناها الاصطلاحي أو الأدبي – كما نرى – : هي كلام مستخلص من تجارب الحياة وسبر أغوارها ، يقوله من عُرف بين الناس بحكمته الدقيقة ونظرته الثاقبة ، وتقديره السديد للأمور التي مارسها ووقف على كنهها وأسرارها ليهتدي بها من يعقبه ويتخذها دليلاً في مسار حياته ، وليتجنب الوقوع في المآزق والأخطاء . وكثيراً مالكون هذه الوصية في حالة قرب الإنسان من النهاية من ساعة الاختفاء وقرب الأجل) .

ومن الوصايا الطريفة وصية (خطّاب بن المعلّى المخزومي القرشي) لأبنه التي سجلها ابن عربي في كتابه : (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار) .

ولهذه الوصية سند شمل ثمانية أشخاص رفعوها إلى خطاب هذا ، وهي تتكون من عناصر أو مفاصل اجتماعية ودينية وأخلاقية وتربوية ، فخطاب نتيجة تجاربه العميقة في شؤون الحياة ، وخبراته الدقيقة كل لون من ألوانها ، تهيأت له مادة دسمة جمع فيها كل ما يمكن أن يقال أو يُوصى به . فبدأها بوجوب تمسك ولده بتقوى الله، وتجنب محارمه ، وإتباع سنته ومعارفه ، لكي يصبح عيشه هنيئاً، وتقر عينه ، ويهدأ باله . كما رسم له رسماً أو أختط له خطة لو أتبعها وحفظها وعمل بموجبها لملئت به عيون الملوك ، وبعد هذا التمهيد أو الديباجة يوصيه بإطاعة الأب والاقتصار على وصيته ، وأن يتجنب هذر الكلام ، وكثرة الضحك والمزاح ، ومحاراة الأخوان ؛ لأن ذلك يذهب البهاء ، ويوقع الخلاف ، وعليه عوض ذلك التحلي بالرزانة والوقار ، من غير تكبّر ولا خيلاء ، وأن يلقى الصديق العدو بوجه الرضا ، والكف عن الأذى من غير أن يكون في ذلك ذليلاً أو مهيباً لهم .

وعليه أن يكون في أموره وسطاً ؛ لأن خير الأمور أوسطها ، ويمشي متمكناً غير خاطٍ برجليه ، ولا ساحب ذيله ، ولا ملقٍ رداءه ، ولا ناظر في

عطفيه ، ولا مكثر من الالتفات وراءه ، ولا واقف على الجماعة ، ولا متخذ السوق مجلساً ، ولا الحوانيت متكأ .

ولا يكثر من المراء ، ولا ينازع السفهاء . وأن قضى أوجز ، وأن مدح أختصر ، وأن جلس تربّع .

وعليه الابتعاد والتحفظ من تشبيك الأصابع ، والعبث باللحية والخاتم ، وذؤابة السيف ، وتجنب تخليل الأسنان ، وإدخال اليد في الأنف ، وطرد الذباب عن الوجه ، كما يجب تجنب التثاؤب والتمطي ، مما يستخفه الناس من العادات السيئة ويستهجنونه منها .

وليكن مجلسه هادئاً ، وحديثه معلوماً . كما ينبغي الإصغاء إلى الكلام الحسن ممن يحدّثه ، من غير إظهار عجب مما يسمع ، ولا مسألة إعادة . والابتعاد عن الفكاهات والمضاحك والحكايات ؛ لأنها من عوامل ضعف الشخصية وقلة الرزانة . وتجنب الحديث الذي يطرى به ولده ، أو خادمه أو المتعلقات به كالفرس والسيف . والابتعاد عن أحاديث الرؤيا التي قد تدفع بالسفهاء إلى السخرية منه ، والهزء بعقله وتفكيره .

وعليه الابتعاد عن التصنع تصنع المرأة ، وعدم التبذل تبذل العبد ، وإن لا يوالي تمشيط اللحية أو نتف الشيب ، والإكثار من التكحل ، والإسراف في استعمال الدهن .

وأن لا يلح في طلب الحاجات ، ولا يخضع في الطلبات . وأن لا يعلم أهله ولا ولده ولا سواهم ما عنده من مال ؛ لأنهم إن علموا ما لديه قليلاً هان عليهم، وإن كان كثيراً لم يبلغ به ما يرضونه ، وإن يكون معهم غليظاً من دون شدة ، وليّناً من دون ضعف . وإن لا يهزل في حاجاته مع أمته ولا عبده ؛ لأن ذلك يكون مدعاة إلى سقوط وقاره من قلوبهم . وعليه إذا خاصم أحداً أن يكون متوفراً في ذلك ، وأن لا يبدي أنه جاهل وأن لا يكون متسرعاً ، وأن يعدّ حجته جيداً ، ويظهر للحاكم حلمه .

وأن لا يكثر الإشارة بيده ، وأن يتوقى حمرة الوجه ، وعرق الجبين . وأن يكون حليماً إذا سفه عليه ، فإذا هدأ غضبه فليتكلم بما عنده . وعليه إكرام عرضه، وإلقاء الفضول عنه . وإذا قربه السلطان أن يكون حذراً جداً ، وإذا أسترسل في الحديث ، والتقريب له فلا يكن في مأمن من سورة غضبه ، وأنقلابه عليه ، وأن يكون رفيقاً به ، ومكلماً له بما يحبه ويشتهيه ، ما لم يكن في ذلك مضيعاً لحق من حقوق الله ، وأن لا يدخل بين خاصته إلا ما هو خير ، وإن كان يظهر الاستماع والطاعة لأن سقطة الداخل بين الملك وأهله صرعة ، ومهوى لا ينهض منه . وعليه إيفاء الوعد إن وعد ، والصدق إن تحدث ، وأن لا يرفع صوته عالياً كأنه ينازع الأصمّ ، ولا يخفضه كأنه صوت الأخرس .

وعليه اجتباء الحديث المقبول ، ونسبه ما يحدّث به إلى أهله ، وتجنب الأحاديث الغريبة المستبشعة التي لا ترتاح إليها النفوس ، وتقشعر لها الجلود ، وتحاشي إعادة الكلمة مثل : نعم نعم ، ولا لا ...

وإذا ترضأ أن يحسن فرك كفيه ، ولا يتنخع في الاناء ، وليكن ما يطرحه من الماء مسترسلاً ، ولا يمجه مجاً لئلا ينضح على أقرب الحلساء . وأن لا يعض بعض اللقمة ويعيد ما بقي منها إلى الصحن ؛ فإن ذلك مستكره ، وأن لا يكثر من طلب الماء في مائدة الملك ، وأن لا يعبث في مشاش العظام ، وإن لا يزري بالطعام أو ما يقدّم إلى المائدة ، من بقلٍ أو خلّ أو تابل أو عسل ؛ لأن أصحابه جعلت لنفسها المهابة .

وأن لا يمسك إمساك المسكين المحروب ، ولا يبذر تبذير السفيه المغرور. وأن يعرف في ماله الحقوق الواجبة ، وما يتحتم من حرمة الصديق ، وأن يستغني عن الناس ؛ فأنهم عند ذلك يحتاجونه .

ويعلم أن الطمع يزجى إلى الطبع والرغبة التي كما قيل تدق الرقبة . وعليه أن يعلم أيضاً أن الأكلة التي يفرط فيها قد تكون سبباً في منعه من سواها

كما عليه أن يفطن إلى ان التعفف والإكتفاء بما عنده يعدّ مالاً عظيماً ، وخلقاً كريماً.

وأن يفطن إلى أن معرفة الإنسان قدره ترفع من شأنه وتشرّف ذكره . وأن من تعدّى قدر ما قدّر له سقط في هوّة سحيقه .

ويعلم أن الصدق من المزايا الحميدة ، وأن الكذب من الخصال السيئة ، وان الصدق الذي يكون سبباً في عقاب صاحبه أفضل من النجاة مع الكذب .

وأن معاداة الإنسان الحليم أفضل من مصادقة الأحمق ، وإن الزوجة السوء كالدمن الذي ظاهره ينطوي على باطن رديء ، وإنها كالداء الذي لا شفاء منه . وان مباشرة العجوز سبب في ذهاب ماء الوجه ، وطاعة النساء تزري بالرجال العقلاء .

وعليه أن يتشبّه بأهل الفضل ليكون منهم . وأنضاعه للشرف إدراك له . وأن كل إنسان حيث عرف قدر نفسه ، وعرف مقداره ؛ ولهذا ينسب السيف إلى قينه ، ويعرف المرء بقرينه .

وعليه الابتعاد عن إخوان السوء ؛ فأنهم غير مؤتمنين على من يرافقهم؛ فأنهم أعدى من داء الجرب ، والتحاشي عنهم من استكمال الأدب . وجفاء المستعين لؤم ، والإسراع في الأمور شؤم ، وسوء التدبير وهم ، والأخوان أثنان : محافظ ومساعد عند الابتلاء للحاجة ، وآخر خليل في حال الرخاء ، فالأول : هو الذي ينبغي أن يصاحب ، والآخر هو الذي يحب أن ينأى عنه ؛ لأنه أعدى من الداء الوبيل .

ولا يمل إلى الهوى ؛ لئلا يميل به إلى الردى . ولا يعجب بمن ظرف منظره من الرجال ، ولا يزدري من بان ظاهره ضئيلاً منهم ؛ وسبب ذلك أن الإنسان يقاس بشيئين مهمين في النظر إليه ؛ وهما قلبه ولسانه ، وما يبدوانه من علم وخلق ومروءة .

وعليه التوقي من الفساد ، ولو كان في أرض غير أرضه ، وبلد غير بلده. ولا يتهاون في ابتذال عرضه لمن دونه ، ولا يجعل ماله يطغى في أهميته على عرضه .

ولا يكن ثرثاراً كثير الكلام ؛ فيكون سبباً في استثقال الناس له ، وأن يكون ذا وجه طلق ، إذا أضافه أحد .

وعليه أن يبتعد عن أدوات الزينة التي تفر به من النساء ، فيظهر بمظهر التأنيث ، ويبتعد عن طائفة الرجال والرجولة .

ويكون عارفاً بانتهاز الفرص ، رفيقاً في طلب الحاجة ، ويلبس لكل زمان ما يناسبه ، وينسلك مع كل قوم بما هم عليه .

ويحذر من أن تكون اللائمة آخرته . وأن لا يتعجل في أمر إلاّ أن يفكر فيما يعقبه .

ويحذر حلق إبطه بالنورة ، وعليه أن يستاك حتى يصبح ذلك له عادة فإذا أستاك فليكن ذلك عرضاً .

وينبغي العناية بالعمران ؛ فإنه أنفع من الاتجار ، ومعالجة الزرع أفضل من أقتناء الماشية .

ومنازعة اللئيم سبب في طمعه فيه ، ومن أكرم نفسه وعرف قدرها أكرمه الناس وقدّروه . والرفيق الصالح كأبن العمّ .

ومن أيسر عظم في أعين الناس ، ومن افتقر سقط في نظرهم وأحتقروه. وعليه أن لا يطيل في المقالة خوفاً من الإجابة ، ومن يسعى لا يخلو من معاتبتك، طول السفر من أسباب الملل ، وكثرة المنى ، وتجاوز الحد سبب إلى الضلال والفقدان .

ليس للمعاتب صديق ، وليس على الميت شفيق .

الأدب لمن شاخ من أسباب العيّ ، وهو المفتى شفاء ودواء . أن أزين الأمور الدين ، والشماتة من أسباب السفاهة ، والسكران أشبه بالشيطان ، وكلامه عيّ ، وهذيان .

وأن ما يعتاده الإنسان طبيعة لاذبة ؛ فأن كان خيراً فخير ، وإن كان شرّاً فشرّ .

أن الفرار عار لاصق بصاحبه ، والاقدام عزّ ولكنه مصحوب بالمخاطر . وكثرة ما يعقل به الإنسان ويشكوه – مع الوفرة – من دلائل البخل ، وحسن اللقاء – مع طلاقة الوجه – يذهب بالشحناء ، والكلام الليّن من سمات أخلاق الكرماء.

□□□□□□□

وينتقل خطاب بعد هذه الوصايا المتتالية الغالية إلى اختيار الزوجة الصالحة، ويقف عند المرأة التي يراها جديرة بالصحبة والاقتران فيقول موصياً أبنه :

أن زوجة الرجل هي سكنه ومأواه ، والعيش دونها لا معنى له ، ولا يمكن أن يكون له معنى ، وعليه إذا همّ بأختيار سكن له أن يسأل عن أهلها ؛ لأن العروق الزاكية تنبت أمثالها .

وعليه أن يعلم أن النساء أشدّ اختلافاً في كل شيء من أصابع اليد ، فليتوق منهن كل من جبلت على الأذى ، كالتي أعجبت بنفسها ، المزرية بقرينها، إن جهد في إكرامها ، رأت فضلها يربو على فضله ، فلا تشكره لجميله، ولا تقبل منه ما قلّ ، ذات لسان سفيه تطيله عليه ، فهي لا تستحي من عوارها وجارها وهكذا لم يترك صفة ذميمة أتصفت بها مثل هذه المرأة إلا ذكرها ، وحذّر أبنه منها . ودلّ بذلك على خبرة طويلة عميقة لتجنب الاقتران

بمثل هذه المرأة ، ولا يعدم المجتمع حتى الآن من أمثالها . ومنهن : الحمقاء المدلّة في غير ما يدعوا إلى ذلك ، التي تمضع لسانها ، وتأخذ في شأنها ، قد قنعت بما هي عليه، ورضيت بما يكسبه قرينها . وبعد أن ذكر جملة من الصفات التي اتصفت بها المرأة الرعناء الكسول ، أنتقل إلى نوع آخر من النساء التي أعجب بها ، وكأنه يوحى إلى أبنه الأقتران بها ، فمن صفاتها :

العطف والوداد ، الولود المباركة ، المأمونة على كل شيء ، المحبوبة من جيرانها ، الحافظة لسرّها وعلنها ... وهكذا يسرد مجموعة من الخلال الكريمة التي تتحلى بها أمثال هذه المرأة ، وأنهى هذه الوصية :

بأن تمنى لولده أن يجعله الله ممن يقتدى بالخير ، ويأتم بالتقوى ، ويتجنب السخط ويهوى الرضا ، ويستخلف الله عزّ وجلّ عليه ، وأن لا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم .

يتضح من هذه الوصية – على طولها – عدة أمور ، منها :

أن الموصي كان قد سبر أغوار الحياة طويلاً ، فجمع في هذه الوصية كل ما يمكن أن يقال في بابها .

ومنها :

أنه كان فصيحاً فيها بليغاً ، فليس في كل ما جاء فيها كلمة نافرة أو غريبة، وكأني بخطاب أراد أن تكون وصيته لكل أحد ، وليس لأبنه حسب .

ومنها :

أنه صاغ كل وصاياه في وصيته هذه بعبارات سهلة لا التواء فيها ولا غموض ومنها :

أنه استقى وصاياه مما ورد لدى الآخرين من عبارات مكثفة جامعة مانعة.

ومنها :

إن ما جاء فيها يكاد أغلبه يستحيل إلى حكم وأمثال سائرة .

ومنها :

إن ما جاء فيها مستقى من التراث العربي الإسلامي ، فليس فيها عبارة واحدة مما استعاره من أمم أخرى .

ومنها :

إن الكثير من هذه الوصايا كانت معلّلة كقوله : (ولا يمل إلى الهوى ؛ لئلا يميل به إلى الردى) .

ومنها :

أنها تصلح لكل زمان ومكان .

ومنها :

أنها تعد دستوراً دقيقاً لكل من يشاء تربية أبنه تربية عربية إسلامية قديمة.

وإلى جانب ذلك هناك خصائص فنية لهذه الوصية ، فخطاب لم يلتزم فيها أسلوباً واحداً ، فقد جاء فيها من الأساليب الأزدواج كقوله :

(يا بني عليك بتقوى الله عزّ وجلّ وطاعته ، وتجنب محارمه بأتباعك سننه ومعاملته) . وقوله :

(وإياك وهذر الكلام ، وكثرة الضحك والمزاح) .

كما جاء فيها الكثير من السجع القصير كقوله :

(وأقلل من الكلام ، وأفش السلام) ، وقوله :

(وإن قضيت فأختصر ، وأن مدحت فأقتصر) . وجاء فيها الكثير من العبارات القصيرة غير المسجوعة كقوله :

(ولا تتصنع تصنع المرأة ، ولا تبذل ببذل العبد ، ونحب بأقساط لحيتك..) وورد فيها من الفنون البديعية الطباق كقوله :

(واجفهم من غير عنف ، ولِنْ لهم من غير ضعف) وقوله : (وإن سفه عليك فأحلم) وقوله : (ولا تمسك إمساك المسكين المثبور ، ولا تبذر تبذر السفيه المغرور) .

وبعد :

فأنا نرى أن لهذه الوصية من المرامي البعيدة في تنشئة الجيل الصالح ما يفوق سواها ، ونأمل أن يقرأها الكثيرون ويتخذوها وسيلة لتربية الأبناء ؛ لأنها تمثل في رأينا إنموذجاً عالياً وصالحاً يمكن أن يقتدى به ، ولولا ما رأيناه منها من هذه الملامح والخصائص لما شغلنا بالنا بها . وتبينا العناية بها .

والله من وراء القصد .

أما نص الوصية فيبدو أن كتاب (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) لأبن عربي الأديب الشاعر الصوفي قد أنفرد بها وهي :

(قال : ثنا الحاجب أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سليمان المعروف بأبن البطي ، قال : حدثنا أبو الفضل أحمد بن الحسن بن حبرون ، قال: حدثنا أبو علي الحسين بن أحمد بن ابراهيم بن شادان ، قال : حدثنا أبو الحسن أحمد بن إسحاق الطيبي ، قال : أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن شاكر الريحاني ، قال: أنا أبو حاتم ، قال : ثنا محمد بن عطية ، قال : قال خطاب بن المعلّى المخزومي القرشي لأبنه :

يا بُنيَّ عليك بتقوى الله عزَّ وجلَّ وطاعته ، وتجنب محارمه بأتّباعكَ سنّته ومعاملتهُ ، حتّى يصحّ عيشُكَ ؛ فإنّه لا يخفى على الله خافيةً .

وإنّي قد رسمتُ لك رسماً ، وسَمْتُ لكَ وسماً ، إنْ أنت حفظته ووعيته ، وعجلت به ، مُلئت بك أعين الملوك .

فأطع أباكَ ، واقتصر على وصيّته ، وفرّغ لذلك ذهنك ، وأشغل به قلبك ولبّك ، وإيّاك وهذرَ الكلامِ ، وكثرةَ الضّحك والمُزاح ، ومُماراة الإخوانِ ؛ فأنّ ذلك يذهب البهاءَ ، ويوقعُ الشّحناءَ ، وعليك بالرّزانةِ والوَقار ، من غيرِ كبْر يُرصّفُ منكَ ، ولا خُيلاء تُحكى عنك ، وألقَ صديقكَ وعدوّكَ بوجه الرّضا وكفّ الأذى ، من غير ذلّةٍ لهُمْ ، ولا مهابةٍ منهُمْ ، وكُن في جميع أمورِكَ أوسطها ؛ فإنّ خير الأمورِ أوسطُها ، وأقلّلْ الكلامَ ، وأفشِ السّلامَ ، وامشِ مُتمكناً ، ولا تخطّ برجليكَ ، ولا تسحبْ ذيلكَ ، ولا تُلقِ رداءك ، ولا تنظُر في عطفيكَ ، ولا تكثر الإلتفات وراءكَ ، ولا تقفْ على الجماعات ، ولا تتخذ للسُّوق مجلساً ، ولا الحوانيتَ متحدثاً ، وتكثر المِراءَ ، ولا تنازع السُّفهاءَ ، وإن قضنت فأختصرد ، وإنْ مدحْت فاقتصرْ ، وإنْ جلست فتربّعْ ، وتحفّظْ من تشبيك أصابعكَ وتفقيعها ، والعبث بلحيتك وخاتمك ، وذؤابة سيفك ، وتخليل أسنانك ، وإدخال يدك في أنفكَ ، وطرد الذُّباب عن وجهك ، وكثرة التثاؤب والتمطي ، وأشباه ذلك مما يستحقه الناسُ منك ، ويغتمزون به فيك ، ولْيكنْ مجلسُك هادياً ، وحديثُك مقسوماً ، واصغِ إلى الكلام الحسنِ ممن يُحدّثك من غير إظهار عجب منك ، ولا تسأله إعادةً ، وغُضّ عن الفكاهات من المضاحك والحكايات ، ولا تحدّثْ عن إعجابك بولدك ، ولا خادمكَ ، ولا عن فرسك وسيفك ، وإيّاك وأحاديث الرؤيا ، فإنك إن أظهرت الفرح بها والتعجب منها ، طمعَ فيك السُّفهاءُ ، فولّدوا لك الأحلامَ ، واغتمزوا في عقلك . ولا تتصنعْ تصنُّع المرأةِ ، ولا تبذل ببذل العبد ، وحبّ بامتشاط لحيتك، وتوقّ نتن الشيب ، وكثرة الكُحل ، والإسراف في الدُّهن ، وليكن كحلك غِبّاً، ولاتلحّ في الحاجات ، ولا تخضع في الطلبات ، ولا تعلّمْ أهلكَ وولدَك فضلاً عن غيرهمْ عدّة مالك ؛ فإنّهمْ إذا رأوه قليلاً هنتَ عليهم ، وإنْ كان كثيراً لم يبلغْ به مرضاتهم ، واجفُهم من غيرِ عُنف ، ولن لهم من غير ضعْف . ولا تُهازل في حاجاتكَ أمتَكَ ولا عبدكَ ، فيسقط وقارُك من قلوبهم .

وإذا خاصمت فتوفرْ ، وتحفّظْ من جهلك وتجنّب عجلتك وتفكّر في حجّتك، وأرِ الحاكم بينكما حلمكَ ، ولا تكثر الإشارة بيدكَ ، ولا تحفرْ على رُتبتكَ .

وتوقّ حُمرة الوجه ، وعرْق الجبين ، وإن سُفه عليك فأحلُم ، وإذا هدأ غضبك فتكلم .

وأكرِم عرضَك ، وألقِ الفضول عنك . وإنْ قرّبك السُلطان فكُنْ منه على حدّ السِنان ، وإن استرسل إليك فلا تأمنْ انقلابه عليك ، وارفق به كل رفقكَ ، وكلّمه بما يشتهي ، ما لم يضعْ في ذلك حقاً من حقوق الله ، ولا يحملنّكَ ما ترى من ألطافه ، إياكَ وخاصتهُ بك أنْ تدخل بينه وبين أحد من أهله وولده ، وحشمه إلاّ بخير ، وإنْ كان لذلكَ منك مستمعاً ، وللقول منك فيه مُطيعاً ، فإنّ سقطة الدّاخل بين الملك وأهله صرْعةٌ .

وإذا وعدتَ فحقّقْ ، وإذا حدّثت فأصدُق ، ولا تجهرْ بمنطقكَ كمُنازع الأصم ، ولا تُخافت به كمخافتة الأخرس . وتخيّر محاسنَ القول الحديثِ المقبول، وإذا حدّثتَ بسماعٍ فانسبْهُ إلى أهله . وإيّاك والأحاديث الغريبة المستبشعة التي تنكرها القلوبُ ، وتقفُ لها الجلودُ ، وإياكَ ومضاعف الكلام ، نعمْ نعمْ ، ولا ولا، وأجلْ وأجل وما أشبه ذلك .

وإذ توضّأت فأجد عرْك كفيك ، ولا تتنخع في الطّسْت ، ولـيكن طرحُك الماء من فيك مسترسلاً ، ولا تمجّهُ فينضح على أقرب جلسائك ، ولا تعضّ بعض اللقمة ثمّ تعيد ما بقي منها في متصمّعٍ ؛ فإن ذلك مكروهٌ .

ولا تكثر الاستسقاء على مائدةِ الملوك ، ولا تعبثْ بالحُشاش ، ولا تعبْ طعاماً ، ولا شيئاً مما يقرّبُ على المائدة : من بقلٍ أو خلٍّ أو تابلٍ أو عسلٍ ؛ فأنّ أصحابهُ صيّرتْ لنفسها المهابة .

ولا تُمسك إمساك المسكين المبثور ، ولا تُبذّر تبذير السفيه المغرور ، وأعرفْ في مالك واجب الحقوقِ ، وحُرمة الصّديق ، واستغنِ عن الناس يحتاجون إليك .

وأعلم أنّ الجشع (يعني الطمع) يدعو إلى الطّبع والرّغبة ، كما قيل تدقّ ، الرقبة ، والأكلةُ تمنعُ الأكلات ، والتعففُ مالٌ جسيمٌ ، وخُلُقٌ كريمٌ . ومعرفةُ الرجل قدْره تُشرّف ذكره ، ومن تعدّى القدْر هوي في بعيد القَفْر .

والصدقُ زينٌ ، والكذبُ شينٌ ، ولصدقٌ يُسرعُ عطب صاحبه أحسنُ عاقبة من كذب يسلمُ عليه قائلهُ .

ومعاداةُ الحليم خيرٌ من مُصادقة الأحمق .

والزّوجةُ السُّوء الدّمن ، الداءُ العضالُ . ونكاحُ العجوز يذهبُ ماء الوجه، وطاعةُ النساء تزري بالعُقلاء .

تشبّه بأهلِ الفضلِ تكنْ منهم ، وأتضعْ للشرفِ تُدركهُ .

وأعلمْ أنّ كلّ امرئٍ حيث وضع نفسه ، وأنما يُنسبُ الصّارمُ إلى صانعه ، والمرءُ يعرفُ بقرينه . وإيّاك وإخوان السُّوء ؛ فإنهمْ يخونون من رافقهم ، ويخونون من صادقهمْ ، وقربُهم أعدى من الجرَب ، ورفضهم من استكمال الأدب، وجفوةُ المُستجير لؤمٌ ، والعجلةُ شؤمٌ ، وسوءُ التّدبير وهمٌ .

والإخوان أثنان : فمحافظٌ عليك عند البلاء ، وصديقٌ لك في الرُّخاء ، فأحفظ صديق البلية ، وتجنّب صديق العافية ، فإنّه أعدى الأعداء . ومن اتبعَ الهوى مال به إلى الرّدى ، ولا يعجبكَ الظّريف من الرجال ، ولاتحقرْ ضئيلاً كالخلال ، وإنما المرءُ بأصغريه : قلبه ولسانه ؛ ولا ينتفعُ منه إلا بأصغريه . وتوقّ الفساد وإن كنت في بلاد الآعاد . ولا تفرش عرضك ثمن دونك ، ولا تجعل مالكَ أكرم عليكَ من عرضكَ . ولا تُكثر الكلامَ ؛ فتثقل على الأقوام . واضح البشر جليسكَ والقبول ، وإيّاك وكثرة التبزيق ، والتلديق ، والتنويق ، فإنّ ظاهر ذلك ينسبُ إلى التأنيث ، والتصنّع لمغازلة النساء .

وكن منتهزاً في فُرصتك ، رفيقاً في حاجتك ، مثبتاً في عجلتك ، والبسْ لكل دهرٍ ثيابَه ، وكُنْ مع كلّ قومٍ في سلكهم ، واحذرْ ما يكون بك اللائمة في

آخرتك ، ولا تعجلْ في أمر ، حتى تنظر في عاقبته ، وعليك بالتنوّر في كل شهر، وإيّاك وحنْقَ الإبط بالنّورة ، وليكن السواكُ من طبعك ، وإذا استلت فمرضاً، وعليك بالعمارة فإنها أنفعُ من التجارة ، وعلاجُ الزّرع خيرٌ من اقتناء الضّرْع ، ومنازعتكَ اللئيم يطمعُ فيك ، ومن أكرم عرضهُ أكرمهُ الناسُ ، ومعرفةُ الحق من إخلاص الصدْق ، والرفيق الصالحُ ابن عمّ .

مما أيسر عُظّم ، ومن افتقر أحتقرَ ، قَصّرِ في المقالة مخافةَ الإجابة ، والسّاعي عاتب عليكَ .

طول السفرِ ملالةٌ ، وكثرةُ المُنى ضلالةٌ ، وليس للمعاتبِ صديقٌ ولا على الميت شفيقٌ .

والأدب للشيخ عياءٌ ، والأدبُ للغُلام شفاءٌ . والدينُ أزينُ الأمورِ ، والشمَاتةُ سفاهةٌ ، والسكرانُ شيطانٌ ، وكلامهُ هذيانٌ ، والعادةُ طبيةٌ لازمةٌ ، إن خيراً فخيرٌ ، وإنْ شراً فشرٌ .

ومن حل عقداً احتمل حقداً ، والفرارُ عارٌ ، والتقدُّمُ مخاطرةٌ ، وكثرةُ الملل – مع الوجود – من البخل ، وشرّ الرجال الكثيرُ الاعتلال (يعني في القول)، وحسنُ اللقاء يذهب بالشّحناء ، ولينُ الكلام من أخلاقِ الكرامِ .

يا بُني . إنّ زوجة الرجل سكنهُ ، ولا عيشَ له مع خلافها ، وإذا هممت بنكاح امرأة فاسأل عن أهلها ؛ فأنّ بالمعروف الطيبة تنبتُ الثمار الحلوة . وأعلم أنّ النساءَ أشدّ اختلافاً من أصابع الكفّ فتوقّ منهنّ كلّ ذات يدٍ مجبولةٍ على الأذى، فمنهنّ المعجبةُ بنفسها ، المزريّة ببعلها ، إن أكرمها رأت فضلها عليه ، ولا تشكره على جميلٍ ، ولا ترضى منه بقليل ، لسانهُ عليه سفيةٌ صقيلٌ، قد كشفت اللقحة وستر الحياءِ عن وجهها ، ولا تستحي من عوارها ولا من جارها ، هدّارةٌ ، ظنّانةٌ ، مهارشةٌ عقاره ، وجهُ زوجها مكلومٌ ، وعرضهُ مشتومٌ، لا ترعاه لدنيا ولا دينٍ ، ولا تحفظه لصحبةٍ ، ولا لكبر سنٍ ، حجابُه مهتوكٌ ، وسرّه منشورٌ ، وخبرُه مدفونٌ ، يصبح كئيباً ، ويُمسي غائباً ، شرابُه

شرٌّ ، وطعامُهُ غيظٌ ، وولده صائمٌ ، وبيته مستهلكٌ ، وثوبه وسخٌ ، ورأسه شعثٌ ، إن ضحك فراهبٌ ، وإن تكلّم فمتكاره ، نهاره ليلٌ ، وليلهُ نهارٌ ، تلدغهُ مثل الحيّة ، وتكرشهُ مثل العقرب ، صهصلت ختّارةٌ ، دُفلسٌ لخناءُ تهبّ مع الرياحِ ، وتطير مع كل ذي جناحٍ ، إنْ قال : لا ، قالت : نعم ، وإن قال : نعم ، قالت : لا ، مُحتقرةٌ لما في يديه ، تضربُ له الأمثال ، وتقصّرُ به دون الرجال ، وتنقلهُ من حالٍ إلى حالٍ حتى قلى بيته ، وملّ ولدهُ ، وغبّ عيشهُ ، وهانت عليه نفسه ، حتى أنكرهُ إخوانه ، ورحمه جيرانه .

ومنهنّ الحمقاءُ ذات الدّلال في غير موضعه ، الماضغةُ للسانها ، لآخذةُ في شأنها ، قد قنعت بحبه ، ورضيت بكسبه ، تأكل كالحمار الرّاتع ، وترتفع الشمس ولم تسمع لها صوتاً ، ولم تكنس لها بيتاً ، طعامها باعتٌ ، وإناؤها وضرٌ ، وعجينها ، وماؤها فاترٌ ، وماعونها ممنوعٌ ، وخادمُها مضروبٌ .

ومنهن القطوفُ الورودُ ، المباركة الولود ، المأمونة على غيبتها ، المحبوبة في جيرانها ، الحافظة لسرها وعلنها ، الكريمة التبعل ، الكثيرةُ التفضل، الخافضة صوتاً ، النظيفة بيتاً ، خادمُها مسمىّ ، وأبنها مزينٌ ، وخيرها دائمٌ ، وزوجها ناعمٌ مصونة ألوفة بالخير والعفاف موصوفة .

جملكَ الله يا بُني ممن يقتدي بالخير ، ويأتم بالتقى ويتجنب السُخط ويحبُ الرضا ، والله خليقني عليك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم .